

الإصلاح يبدأ من هنا

د. محمد سامح سعيد

أستاذ بكلية الهندسة – جامعة القاهرة

=====

عجيب أمر مسلمى هذا الزمان . فمعظمهم يحملون إرثا لا يعرفون قيمته الحقيقية . أن هذا الدين هو رؤية فلسفية متكاملة للحياة ووصفة سحرية للسعادة فى الدنيا والآخرة . ولكن معظم المسلمين اعتبروا أن أقصر طريق لاتباع دينهم وإرضاء ربهم هو أداء الفرائض والإكثار من الصلوات وقيام الليل وختم القرآن مرات عديدة . التوجه محمود ولكن هناك ما هو أعمق هذه الفرائض جميعها والصوم من بينها إنما هى تحية الدخول وربط العقد بين الإنسان وربه وعلامة الالتزام ولكنها ليست نهاية المطاف . أكثر المسلمين يعتبرونها نهاية المطاف ويفصلون بين الدنيا والدين فالدين لله والدنيا للناس وهذا غير صحيح . لأن الإسلام هو مشروع متكامل يحدد العلاقة بين الإنسان وربه وبين الإنسان وجيرانه وبين الإنسان وزملائه فى العمل وبين الإنسان وأسرته وبين الإنسان ووطنه وبين الإنسان ونفسه . الإسلام مشروع متكامل للتقدم الإنسانى وللصناعة وللعلم ولمنفعة الناس وللتعمير وللرخاء وهو أيضا مشروع متكامل للأخلاق والفضيلة وحسن المعاملة والتكافل الاجتماعى والمحبة بين البشر حتى لو كانوا من ملل أخرى . ولكننا انسلخنا عن المشروع المتكامل واكتفينا بالطقوس والنوافل وزدنا فيها تقريبا واسترضاء ، وتركنا المهمة الأصعب وهى بناء الوطن وتقديمه وقوته ورخاءه . انشغلنا بالدنيا ومكاسبها وخسائرها وشغلنا أنفسنا واحتياجاتنا عن التكليف الأسمى وهو الخلافة فى الأرض بمعناها الواسع وهو إقامة العدل والسلام والحق وبناء الحضارة والبحث عن المعرفة والاكتشاف العلمى وصولا إلى إدراك قدرة الخالق من دراسة كونه وقوانينه . تركنا المهمة الصعبة وأصبح كل همنا المظاهر وليس الجوهر . المهم طريقة اللبس ، شكل اللحية ، أين نضع أيدينا أثناء الصلاة ؟ هل ندخل المسجد بالقدم اليمنى أو اليسرى ؟ هذه تفاصيل لا ضير فيها ولكنها لا يجب أن تكون مبلغ همنا ومنتهى علمنا . إننا نختم القرآن عشرات المرات ولكننا لا نتدبر معانى آياته ثم لا نطبق ما تنص عليه هذه الآيات فى حياتنا وفى معاملتنا . هناك انفصام شديد بين النظرية والتطبيق ،

بين التدين والسلوك الدينى . كان الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم يوصف بأنه قرآن يمشى على الأرض وأن خلفه القرآن . هذا هو المطلوب منا أن نجسد الكلمة الربانية القرآن فى سلوكنا وفى عقولنا بكل ما فيه بدءا بالتأمل فى هذا الكون والعمل والإخلاص وحسن الخلق وحب العلم . الذى لا يفهمه الكثيرون هو أن حال المجتمع وما وصل إليه لن ينصح إلا إذا أصلح كل إنسان نفسه. ولكن الشائع هو أن كل فرد ينظر إلى عيوب غيره ويتأمل فيها وينس تماما أنه هو نفسه مقصر فى حق الله وفى حق الوطن وفى حق نفسه . من السهل جدا أن ننقد الآخرين ولكن من الصعب جدا أن نعترف بأخطائنا . لن ينصح حال الأمة بانتظار فرج من السماء ولا بمعجزة إنما ينصح إذا أصلح كل امرئ نفسه وينسى عيوب الآخرين . ولا بد أن نفهم جيدا أن طريق الإصلاح طويل وشاق على النفس ويتطلب أولا الاعتراف بالخطأ الفردى قبل نقد المجتمع والسخط عليه . كلنا مسئولون عما وصلنا إليه من تخلف عن باقى أمم كثيرة سبقتنا ولا بد أن نعترف بذلك ولا نكابر . والسر كله يكمن فى قلة العمل وقلة الإخلاص وغياب الضمير . صائمون نعم ولكننا لا نعى لماذا نحن صائمون . الله غنى عن جوعنا وعطشنا بل هو يريدنا أقوىاء وأول مظهر للقوة الإرادة أن تتغلب على متطلبات الجسد وتقوى على الغرائز والاحتياجات الدنيوية وتتغلب عن السقطات . نحن نجتاز امتحان الصوم وهى المرحلة الأولى للإعداد الذهنى والنفسى الذى يطلبه منا الله ونكتفى بهذه المرحلة . ولا ننتقل إلى غيرها . بينما غيرها أهم . إن الاعداد الأولى لقوة الإرادة كان يجب أن يتلوه إرادة تغيير حال الوطن من دولة محسوبة على العالم الثالث إلى دولة متقدمة . هذه الإرادة غير موجودة عند كثير من الناس . يتذرعون بحال الإحباط واليأس وتردى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية . ما الذى يحسن هذه الأوضاع ؟ العمل وليس أى شىء آخر . فإن جاز أن يكون هناك شعار يرفع فهو العلم والعمل والضمير والأخلاق طريق التقدم وللأسف فإن كثيرا من المسلمين ينظرون إلى دينهم نظرة مسطحة جدا فهم يعتبرون أن الاعتكاف والانعزال عن المجتمع هو الحل وهذا خطأ فادح . كما أن هناك خطأ فادح آخر هو تكفير المجتمع وعداوته. محمد صلى الله عليه وسلم كان يشارك مجتمعه الوثنى فى كل أنشطته ما عدا السجود للأصنام ولكنه كان ينمى وشائج القرى وصلات الدم حتى مع

المشركين . ومن ثم فإنه لا يصح أن يحتكر أحد راية الإسلام ويستعدى بها طوائف المجتمع . فالإسلام ثقافة ودين لمجمع المسلم وغير المسلم فى حب وطن يجمع الكل . وكل النعرات التى تفرق أبناء الوطن الواحد أو تختصر الإسلام فى مجموعة دون أخرى هى نعرات فئوية متعصبة ضيقة الأفق وهذا أخطر ما يواجه الإسلام فى هذا الزمان ضيق الأفق وانغلاق التفكير والتعصب . إن سماحة الإسلام التى جسدها رسول الله صلى الله عليه وسلم ومرونته حتى مع العصاة وحتى مع المشركين هى التى جذبت القلوب والعقول إلى هذا الدين العظيم . نريد أن نتحرر من الجمود ومن التعصب ومن الانغلاق ومن ضيق الأفق . نريد الإسلام المستتير الذى يجمع ولا يفرق الذى يجيب ولا يستعدى أحدا حتى من خارج الملة . من نحن حتى نحكم على الآخرين فلنترك الحكم والقضاء والدينونة لله وحده . بعضنا أهمته الدنيا وجمع المال عن كل شىء آخر . ما يضيرنا فى ذلك كل إنسان يحاسب على أعماله فمالنا نصب أنفسنا حكاما وقضاة . فى نهاية المطاف كل يحمل وزر نفسه ولا تكلف إلا نفسك وحسابنا جميعا على الله وحده . نريد مزيدا من سعة الصدر والصبر . مزيدا من راحة الفكر ، مزيدا من المرونة والتسامح ، مزيدا من نقد الذات لا الغير . الذى يقبل الاختلاف ولا يكفر المجتهد . ونريد أن ننزه اسم الإسلام عن عبث السياسة وطموح الصراعات وجموح الأهواء وخلافات البشر . نريد أن نتأمل ديننا أكثر عمقا ونفهم أى إرث عظيم نحمله جيلا بعد جيل ونحن أبعد ما نكون عن إدراك عظمته . نريد إظهار جوهر الدين لا مظهره ، نريد أن ننفذ إلى العمق لا السطح نريد أن نعى المضمون لا الشكل . عندئذ فقط ينصلح حال هذه الأمة .